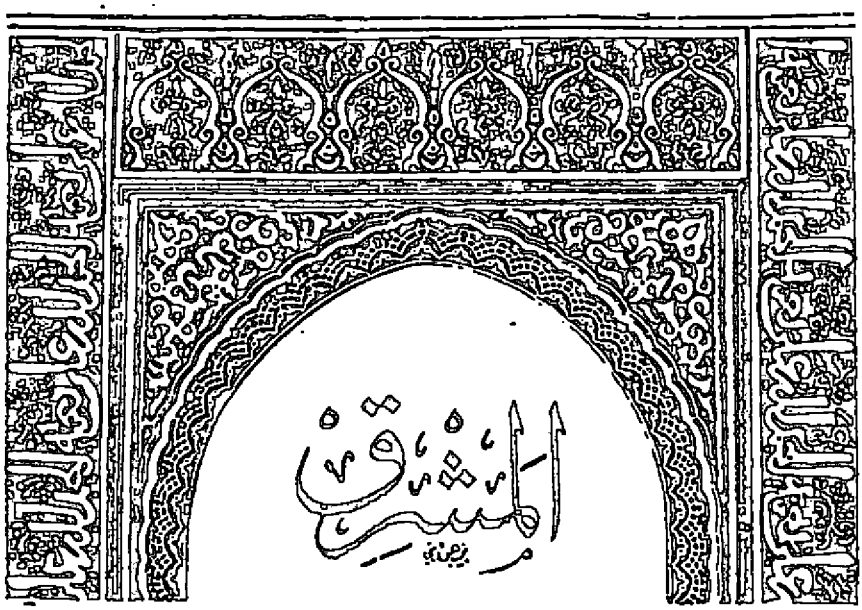

ايار ١٩٣٤

في سماح الله بحدوث الشرّ الادبي

للاب ارمند اودين ، من رهبنة قلب يسوع الاقدس(*)

مقدمة

قدّمنا بيّنا ، في مقالة سابقة(1) ، الفرق الموجود بين نوعي الشر : الطبيعي والادبي ؛ واثبتنا ان هذا يفوق ذاك شناعةً بما لا قياس لـه ، لانه ينافي خضوع ارادة الخليقة لمشيئة الخالق . ثم برهنّا على كون الله مبدئ بعض الشرور الطبيعية ، اي تلك التي تحصل لا محالة من نواميس الطبيعة ، وتلازم لنظام العالم وكماله ، وتلك التي يُنزلها حكم العدل الالهي بالخطأة ، فتدعى عقوبات . اما الشرّ الادبي فاثبتنا انه ليس من الله ، بل مصدره

(*) صحح عبارتها وعني بنشرها على صفحات هذه المجلة القس اسطفان فرجات الراهب اللبناني .

(1) راجع مشرق هذه السنة ، شهر اذار ، ص ١٦١-١٧١

ارادة الخليقة المخالفة لمشيئة الله ، والمائلة الى بعض الخيرات الجزئية بدل الله الخير الاعظم .

غير ان هذا الشر الفظيع الذي يستحيل ان يكون الله علّته ، قد اعتدنا القول عنه ، ان الله تعالى يسمح بحدوثه . فيفيد اذن ان نبحث عن معنى هذه العبارة ، جواباً لمن يسألنا : هل يحتوي هذا السماح على شيء من التأثير الوضعي ؟ ام يُفهم بالمعنى السلبي فقط ؟ اي بأنه عزّ وجل لا يمنع الشرّ عن الحدوث .

إلّا انه لدى تأملنا بهذا السماح يخطر في بالنا سؤال آخر ، وهو معرفة غاية هذا السماح ، اي لماذا لا يمنع الله الشرور عن الوجود ؟ واذن فمن المفيد ان نحلّ هذه المسألة ، ازالةً لشكّ من يعتقدون ان امتلاء دنيانا من الفظائع والمنكرات يدلّ على نقص في عناية الله . وكأننا بهم يريدون ان يكون تعالى مسؤولاً عما في مخلوقاته من النجاسات . وهذا لا يليق ان ينسب اليه عزّ وجلّ . لذلك نقسم مقالتنا هذه الى قسمين : نبحث في الاول ، عما يجب فهمه بالسماح ؛ اذ يتضمّن سماح الله بما في العالم من الشرور الادبية . وفي الثاني نجيب من يسأل : لماذا يسمح الله بوقوع الشرور ، وهل له في هذا غاية يجوز ان نعلمها ؟ والله السميع المجيب .

اذن ماذا يجب فهمه بهذه القضية ؟

١

انه لا يسمح بوقوع الشرور الادبية

ان الامور الالهية ، ينكشف لنا شيء من خفاياها ، اذا تأملنا بما يشابهها ويماثلها في المخلوقات . فلنا اذاً ان ندرك بعض اسرار العناية الالهية باعتبار ما نلاحظه في اعمال العناية البشرية ؛ فامعن نظرك فيما يجري في الجماعة المدنية الخاضعة لعناية حاكمها ، وسل نفسك ما هي افعال الافراد التي تقول ان الحاكم يسمح بها . هل هي ما يفعله بعضهم تنفيذاً لاوامره ؟ كلا ، فانا نقول : ان الحاكم اراد هذه الاشياء ، لا انه سمح بها . وهل هي ما يُفعل خلافاً

لارادته وخفيةً عنه او دون ان يقدر على منعها ؟ كلّا ، فانه يُقال : ان هذه المخالفات قد جرت بالرغم من الحاكم وبغير رضاه وذلك مما ينافي سماحه . لكن هب ان هذا الحاكم يعرف ان البعض يعملون ما تنهي الشريعة عنه ؛ وهو يستطيع ان يردعهم ويضطرهم الى امتثال الشريعة ، الّا انه يمتنع عن ذلك ، ويتغاضى عن سلوك اولئك المذنبين مع انه لا يستحسنه ؛ فلا شكّ حينئذٍ في صحة القول انه يسمح بما يفعلون ، لانه كان في وسعه ان يمنعهم عن ذلك ولم يرد . واذن فهذان الامران يحتوي عليهما تصوّر السماح ، اي من جهة القوة الكافية لمنع شيء عن الحدوث ، ومن جهة عدم استعمال هذه القوة . وهذا منسوب الى الارادة الحرّة . وجليٌّ ان اول هذين الامرين هو شيء وضعي ، خلافاً للثاني فانه ليس سوى سلبي ، لا يضع شيئاً حقيقيًّا فيمن يُعزى اليه السماح . كذلك تصوّر علماء اللاهوت بسماح الله بشرور هذه الدنيا . وبالتالي يمكننا ان نعبّر عن ذلك بقولنا انه تعالى يستطيع ان يمنع هذه الشرور عن الحدوث ، ولا يستعمل استطاعته هذه . واذن فهذان ايضاً جزآن : اولهما وضعي ، والآخر سلبي .

ولكن ربَّ قارئٍ لا يرضيه تبياننا هذا ، اذ يظهر له انه يتضمن عيباً منزوًّا اليه تعالى . لان من كان في طاقته ان يمنع شرًّا عن الحدوث ولم يمنعه ، يُحسب غافلًا ، او مقصرًا ، او متّفقاً مع صانعيه . ولا نرتاب في نسبة ذلك الشرّ عينه اليه ، كأنه مشترك في احداثه . كأن نقول مثلًا : ان قائد الجيش هو المسؤول عن انتصار العدوّ الذي كان في وسعه ان يقمعه ، واهمل ذلك ، ومن جرّاء اهماله هذا تسرّب الخراب الى المملكة . فاذا كان لا بدّ ان نتصور سماح الله بذنوب البشر ، على هذا المنوال ، يظهر اننا ننسبها اليه عزّ وجلّ ، كأنه مسؤول عنها ، وهو بنوع ما مبدئها وعلّتها .

ولكن اعلم ، يا هداك الله ، ان هذا الاعتراض ليس بحديث ، فان الآباء الاجلّاء والمعلّمين القدماء قد اعتنوا بحلّه ، واوردوا لذلك براهين ساطعة . واليك الآن تمييزًا بسيطاً في شأن ذلك : هب انك استاذ في مدرسة ، وان تلامذتك يضيعون اوقاتهم ، ويخلون بالنظام ، وانت صامت متغاضٍ . فمما لا شك فيه

عندئذٍ أنه يقال انك مسؤول عما يأتيه التلاميذ من الهفوات. ثم هب ان لك بستاناً فيه اشجار جميلة اثمارها وغزيرة ، ومرَّ به بعض اولاد فقراء ، على مرأى منك ، وسطوا على تلك الاثمار ، وسكتَّ ، فهل انت مسؤول عن سرقتهم ، ومذموم على سكوتك هذا ؟ كلّا ، خلافاً للحال السابقة ، لان الاستاذ يجب عليه ان يقهر تلامذته كلما ساء سلوكهم ، ولهذا تنسب اليه افعال التلاميذ السيئة التي لم يجتهد في منعهم عنها . واذن فترى من ذلك ان السامح ليس بمسؤول عما يسمح به من الشرور ، ولا يحسب علةً لذلك الّا بقدر ما كان واجباً عليه ان يمنع تلك الشرور عن الحدوث ، والا فلا ذنب في سماحه ولا مسؤولية عليه .

والحال ان الله سبحانه ليس واجباً عليه ان يمنع الشرور عن الحدوث . وهذه القضية هي اكيدة من وجهتين : الاولى كون عقلنا يفتش باطلًا عن حجة يبني عليها حكماً ، بانه يجب على الله منع الشرور . والثانية كون وجود الشرور لا ينافي حكمة الخالق او عدله او رأفته الى غير ذلك من كمالاته تعالى ، والا لصار وجود الشرور بالحال عينها من باب المحال . لان كمالات الله يستحيل نقضها كل الاستحالة . لكن وجود الشرور ليس محالًا ، فانه واقع بالفعل . فاذاً ليس فيه ما ينافي كمالًا من كمالات الله .

فنستنتج اذاً ، انه يجوز ان يسمح الله بحدوث الشرور بالمعنى المارّ ذكره ، وليس بمسؤول عنها ، ولا هو علة لها . ولكن هل هو محقق بالكفاية ما قلناه سابقاً : اي ان سماح الله بالشرور لا يحتوي على شيء سوى هذين الامرين ، اعني القدرة على منع الشرور ، وعدم استعمال هذه القدرة . ألا يجب ان نزيد عليهما شيئاً ثالثاً ، وهو تأثيره تعالى في حدوث الشرور ؟ هذا ما يزعمه قوم ، ويجتهدون في اثبات زعمهم بايراد حجتين : الاولى ان الله هو ، ولا شك ، مبدئ اشياء عديدة تحيط بنا وتحملنا كثيراً على الخطيئة ، كأن يهيج بعض المناظر شهواتنا التي تقودنا الى الاثم ، او كأن تتعاظم المصائب على من يقاسيها ، وهو منكود الحظ ، فلا يبعد اذ ذاك ، ان ينقاد الى التذمر والتجديف . وقد يصعب على طباع الناس تجنب بعض الخطايا ، مثلاً كأن ترى ذوي الدم

الحارّ يحتدمون غيظاً بسرعة . او من كان والده او جدّه قد تعوّد السكر او غير ذلك من الرذائل ، فبالكدّ يستطيع ان يقهر ميل طبيعته عن مثل ذلك . فلما كانت تلك الظروف والاحوال تصدر من الله ، علّة جميع الكائنات ، فكيف يُنكر ان ما يحدث بسببها من خطايا البشر هو ايضاً ينسب الى الله ، فيكون في سماحه تعالى بتلك الذنوب شيء من التأثير الوضعي . والثانية ، يأخذونها من اعتبار كون الله مبدئ الموجودات كافةً ، مما يوجب علينا الاقرار بان افعالنا بأسرها سواء كانت جيدة او رديئة تصدر منه تعالى ، فله اذن تأثير وضعي في كل فعل نرتكب به الخطيئة ، وبالتالي في الخطيئة نفسها . ومما لا ريب فيه ان حلّ هاتين المشكلتين هو من اعسر ما اقدم عليه ارباب الفلسفة ، وقد آثر الكثيرون منهم عدم البحث فيه فموضه . فرالحالة هذه ، فليعذرنا القارئ اللبيب اذا كان كل ما نستطيع ان نقوله في هذا الموضوع لا يذهب بصعوبته ، ولا يكفي لايلاء عقل الباحث فيه تمام الاقتناع به ، والارتياح اليه . فنقول :

ان اول ما يجب الّا ننساه ابداً في درس هذه المسائل ، هو ان الله عزّ وجلّ ، هو الوجود القائم بذاته والكمال الغير المتناهي ، ومن ثمّ ليس تأثيره سوى افاضة وجودٍ وكمالٍ وترقية شيء الى درجةٍ ما من الكمال . فكلّ ما يظهر في البرايا من الاشتراك في الكمال يُنسب لا محالة الى الله ، منبع كل كمال . اما ما فيها من النقص فلا يجوز ان يُنسب الى الله من حيث هو هو . لان النقص ليس اشتراكاً في الكمال ، بل هو خلوٌ من الكمال . والخلو مما يعطيه الفاعل لا يُنسب اليه الّا اذا كان فعله ناقصاً ، اي ادنى مما وجب ان يكون . مثلاً لا يُنسب الى النار ما بقي من البرودة في الماء الموضوع عليها ، الا بمعنى ان النار كانت اضعف مما لزم لتسخين الماء بالتمام . وكذلك لا ينسب الجهل الذي لم يزل في التلميذ الى المعلم ، إلا اذا قصر هذا المعلّم في القيام بمهمته . لكن الفعل الالهي لا يتميز منه تعالى نفسه ، فهو اذن في غاية الكمال ، ولا يقدّر فيه شيء من النقص او القصور . فاذًا لا يجوز ان ننسب الى الله ما في الخلائق من نقص من حيث هو هو . ولا يناقض هذه القضية

ما قد أثبت في القضية السابقة ، من ان بعض الشرور الطبيعية يُنسب حقاً الى الله ، واذا نسبت تلك الشرور اليه تعالى ، فليس من حيث هي نقائص منافية لملء الوجود ، بل من حيث كونها مرتبة لتحصيل بعض الخيرات؛ كما هو جلي في العقوبات التي يصلح بها النظام الذي نقصه المذنب ، فهي من هذه الحيثية ليست بنقص كمال في العالم ، بل بالعكس يحصل بها للعالم كمال غير يسير .

فطبق اذن هذا الاعتبار على كل فعل تقترف به الخطيئة ، ترَ ان هذا الفعل شيء موجود ، له نوعه وخواصه واوان حدوثه ، فما دمنا نعتبره كذلك لا نستطيع الشك في انه من الله مبدئ جميع الموجودات . اما اذا اتينا الى اعتبار خلوه من الحسن الادبي ، ومن الاتفاق مع الشريعة الالهية ، فنضطر الى القول ان هذا النقص ليس من الله كما تقدم اثباته ، بل هو من الارادة المخلوقة من حيث هي مخرجة من العدم ، فانها تعود بنوع ما الى العدم حينما تأبى الخضوع لمشيئة الله ، مع كون هذا الخضوع شرطاً لازماً لكل خير من الخلائق . ولهذا نقول انه تعالى هو بالحقيقة علة أولى للفعل الذي ترتكب به الخطيئة . اما الخطيئة نفسها فيسمح بحدوثها فقط ، سماحاً لا يتضمن تأثيراً البتة منه تعالى . ولا يجوز القول انه هو علة الخطيئة .

وباذا نجيب الآن على الحجة الاولى التي أخذت من اعتبار كون الله هو الذي يضع فينا وحولنا ظروفاً واحوالاً يجرنا بعضها الى اتيان المأثم بقوة تصعب مقاومتها ؛ فيظهر اذن انه تعالى يدفعنا بذلك الى الخطيئة وانه يحسب حقاً مبدئ ذنوبنا . ولا ريب في صحة هذه النتيجة لو ذهبت الاحوال المذكورة بحرية الانسان حتى لا يبقى في وسعه ان يتمالك عن الخطيئة . او بالاحرى نقول انه لو صار الامر كذلك لما عاد لارتكاب الخطيئة من محل . لان الخطيئة الادبية التي يجري كلامنا عليها وحدها ، تستلزم حرية الارادة كشرط ضروري . فكلما نقصت الحرية قلت بالمقدار عينه حقيقة الخطيئة . ولهذا نوقن ان المجانين والسكارى وسائر من فقدوا الرشد ليسوا مذنبين مهما اتوا من القبائح ما داموا على تلك الحالة . مع انهم ربما اذنبوا جداً برضاهم بما ادى بهم الى الحالة عينها كما يظهر فيمن يشمل عمداً .

فتنحصر اذن المشكلة الحاضرة في تلك الاحوال التي ، وان كانت تؤيد الانسان ميلاً الى بعض المحظورات ، وضغطاً في مقاومة شهواته ، فانها مع ذلك لا تزيل من حرية الارادة ما يكفي ليكون الانسان مسؤولاً عن افعاله ، ومذموماً اذا انقاد الى المنكر . وليست هذه الملاحظة قليلة الاهمية . لان كثيرين يغلطون في هذه المسألة ظانين ان ما يصيب المرء من هيجان الشهوات ، ويداهمه من هجوم التجارب ، قد يجرّه لا محالة مرغماً الى الخطيئة . فيظهر لهم من ثمّ ان الله هو علة تلك الخطايا ، غير ان من غصب على اتيان بعض الحركات او الافعال الخارجية ليس بمسؤول عنها ، ولا تحسب هي افعالاً ، ولا بأس في كون الله علةً لها فانها ليست بذنوب.

وماذا نقول الآن عن الاحوال الاخرى ، تلك التي لا يفقد الانسان بها حريته ومسؤوليته مع انهما تنقصان بمقدار شدة التجربة وقلة التأهب لمقاومتها . نعم ان قوماً هنا ايضاً يميلون الى الزعم انه تعالى هو علة الخطايا التي تُرتكب بسبب تلك التجارب ، فتسمع بعض اصحاب الرذائل يعذرون انفسهم بحجج كهذه : ان خُلقي يحملني على هذه الافعال ، ولا اقوى على ملاشاته ولا على مماكسته ، فلماذا اعطاني الله طبعاً كهذا ؟ ولِمَ وضع في طريقي هذه المعاثر ؟ اعني الخلائق التي اثارت شهواتي واغرتني بما يزدله وجداني ، والشدائد التي ذهبت بصبري وحركتني على التجديف . فجذا لو كنت كفلان وفلان وفلان من يظهر الميل الى الفضيلة مغروزاً في سجيتهم ويعيشون بمعزل عن تهالك الدنيا ومفاسد المجتمع الانساني !

لكن اتظن ، ايها القارئ العزيز ، ان الخاطئ يبرر ساحته امام الله بمثل هذا الاحتجاج ؟ نعم انه يبرهن بذلك على ان حريته نقصت بمقدار ما اصابه من التجارب وما أحاط به من المعاثر ، فهو اذن بالمقدار عينه معذور في مساوئه ، وهذا مما لا يُرتاب فيه ، ولكن هل يكفي هذا العذر لنسب خطايا هذا الانسان الى الخالق كأنه تعالى هو محدثها ؟ كلا . فان الكتاب المقدس والعقل المستقيم يتوافقان على تأكيد ما عبّر عنه الرسول اذ قال : ان الله هو امين فلا يسمح بان تجرّبوا فوق طاقتكم ، اي مهما ظهر من شدة بعض

ما يهبُّ علينا من رياح العواصف ومن عجزنا عن النجاة من الغرق ، ومع ذلك فمن المؤكد ان الله الذي هو الحكمة والرأفة بعينهما يجعل الدواء دائماً مناسباً للداء ، واسباب الدفاع موازيةً لاسلحة المدوّ ، وصوت الوجدان معارضاً لصراخ الشهوات ، حتى يكون في يد المرء تعيين حاله ، وارجاح احدى كفتي الميزان ، ولهذا ترى الذين استسلموا للشهوات وتمرغوا في حمأة الاثم ، ثم تابوا ، فانهم من آن اهتدائهم لا يعودون الى الاعتذار بمثل ما مرّ من العلل ، ولا يخطر في بالهم ان يشكوا الله كأنه عزَّ وجلَّ هو بمقدار ما مسؤول عما اتوه سالفاً . بل يعتقدون انهم هم المسؤولون ، وانه لو توفّاهم الله ، غيرَ مرتدّين اليه بالتوبة ، لساغ لجلاله الالهي ان يوبّخهم ويعذّبهم الى ابد الابدين . وحكم التائبين هذا لا شك انه اصحّ واحقّ من رأي الذين اعمت الرذيلة عقولهم . ومع ذلك ترغب كبرياؤهم في تبرير حالهم حتى يجعل المسؤولية عنها ، على من خالفوا شريعة الله واستوجبوا ضربات عدله .

٢

لماذا يسمح الله بوقوع الشرور الادبية ؟

لئن كانت طوّحت بنا الجرأة الى البحث في هذا الموضوع ، والتطفّل عليه تعالى بالسؤال عما قصده بترتيب عنايته الذي يتضمّن السماح بالشرور ، فليست هذه المقاصد الالهية الا لججاً لا قعر لها ، ولا يقوى على سبرها سوى العقل الالهي . ومن هو الانسان ، ليدّعي بمحاسبة خالقه عن اعماله ؟ أليس الخزّاف مطلق الحرّية ليصنع من المادّة نفسها ، على خاطره ، آنية لكرامته وآنية للهوان ؟ أيحلّ للاناء ان يسأل صانعه قائلاً : لماذا صوّرتني كذا وكذا (رومية ٩ : ١٥ — ٢١) هذه هي كلمات القديس بولس التي تحذرنا من الادعاء بالتفتيش عن كل غاية قصدها الله بتنظيمه العالم بهذا او بذاك النمط ، فانه اذا كانت نوايا كل انسان بطبعها تخفى على سائر الناس ، فكم بالحري يقصر ذهننا الضعيف عن ادراك تلك الاعماق البعيدة عن انظار الجميع ، اعني بها مقاصد الحكمة الازلية .

فيا رعاك الله لا تتحيَّر مضطرباً ، مهما لاحظت في تبياننا هذا من عدم المعادلة للموضوع ، ومن نقص الكفاية لازالة كل ما يعترينا طبعاً من الدهشة تجاه هذه الشرور القبيحة ، اعني الجرائم والقبائح التي كثرت كامواج بحر عظيم ووخيم ، تغطي المسكونة ، وتقمرها على الدوام .

وكل متأمل بهذا المنظر المزعج والمحزن يندفع طبعاً الى هذا السؤال : لماذا لا يمنع الله هذه الشرور عن الحدوث ؟ وبما ان الفلاسفة وآباء الكنيسة ، وعلماء اللاهوت قد اجابوا عليه ، فاننا نقتفي آثارهم مبيّنين ما وصل اليه العقل البشري حتى اليوم ببحثه عن هذه المسألة الوبيصة .

اولاً : يجب ان نميّز بين معنيين ، يجوز ان يفهم بكل واحد منهما السؤال المذكور اي لماذا يسمح الله بوقوع الشرور ؟ اولهما : ما يعبّر عنه هكذا : لماذا او لاي غاية اختار الله ، بين العوالم الممكنة ، عالمنا هذا الذي من اجزائه خلائق عديدة لا يخلو وجودها من الشر الادبي ؟ ولِمَ لم يؤثر الله عالماً يخلو من كل شر ادبي ؟ ثانيهما : لاي خير يرتب الله ما في عالمنا من الشرور الادبية ، حتى لا يخلو حضورها من كل منفعة ، وبالتالي من كل لياقة ؟

فاذا فُهم بحسب منطوق المعنى الاوّل ، وجب القول ان هذا السؤال هو باطل ، ولا يمكن ان يجاب عليه بشيء ، وذلك لان اختيار الله احد العوالم الممكنة ، دون غيره ، لا يتعلق إلا بمشيئة الخالق المطلقة الحرّة . فيستحيل تصوّر علّة او حجة ، امالت الله الى ان يكوّن هذا العالم مؤثراً اياه على سواه . فنقول اذن : ان هذا العالم هو موجود مع كل ما فيه من خير وشرّ ، لان الله شاء ان يوجد . وان مشيئة الله هذه لا يُمكن ان يُبحث لها عن علة . لكونها هي العلة الاولى والاصلية ، التي يتعلق بها ، ويُنسب اليها وجود كل كائن ، فاذن ان الله رضي بانشاء هذا العالم ، لا لعلة من العلل ، بل بمجرد استعمال حريته التي استطاع بها ان يوجد بدل هذا العالم ، وعلى حدّ سواء ، بعض العوالم الممكنة التي لا انتهاء لسلسلتها .

واذا فهم بحسب منطوق المعنى الثاني ، نجيب مع القديسين اوغسطين وتوما ، مقرّين بان حكمة الله وجودته الغير المحدودتين تمنعاننا عن الظن بانه

جاز ان يسمح الله بوجود الشرور الادبية ، لو لم يرد ترتيبها لاحداث بعض الخيرات التي لولا تلك الشرور لما كان الى وجودها من سبيل ، ولهذا قال الآباء واللاهوتيون : ان الشياطين والاشرار كافة هم كآلات في يد الله الذي يستخدمهم ، مع كل ما يفعلون ، ويرتب ذلك الى الغايات التي تقصدها عنايته ، وان الخطايا هي في العالم كالقوائم التي يضعها المصوّر في بعض اجزاء صورته قصد ان يزيد باقي الالوان ظهوراً وسطوعاً مما يفيد لجمال الصورة ، او هي كاوقات السكوت التي تتخلل اغنية ما فتزيدها بهجةً . وتشبه الخطايا ايضاً ما في بيت طبيب من السموم وادوات الجراحة ، فان هذه مهما كانت بطبعها مضرةً ، فانها اذا استعملها الطبيب بيدٍ تديرها الفطنة ، تصير جزيلة النفع . فكما انه لا يستغرب احد حضور تلك الآلات عند النطاسي ، ولا يخطر على بالٍ ان يمتنع عن استخدامها ، كذلك وباقوى حجة لا يسوغ ان نشكّ في حكمة الله وكمال عنايته بسبب وجود الاشرار في هذا العالم مع ما يفعلونه من الجنايات والنجاسات .

اما تلك الخيرات التي تحصل في العالم من وجود الخطأة وذنوبهم ، فهناك بيانها طبقاً لتعليم القديسين المذكورين اللذين يتبعهما اللاهوتيون الكاثوليك بأسرهم :

اولها : ان يكون في العالم ظهور لكمالين من كمالات الله ، ألا وهما الرحمة والعدل . فانه ، لو لم تكن خطايا في العالم ، لما امكن ان يمارس الله رحمته بغفرة الآثام ، ولا ان يزاول عدله بمعاقبة الاشرار . ولكان هذا نقصاً عظيماً في العالم ، لان المخلوقات برمّتها هي مرآة كبيرة مصنوعة لتعكس اشعة كمالات الخالق ، فيليق من ثم ان يكون في العالم ما تتمثل به كمالات الله كافةً .

ثانيها : سرُّ الفداء الذي هو اعجب جميع اعمال الله ، واشرفها واجلها ، فهو اذن اجزلها تمجيداً للخالق ، وجليّ ان هذا السرّ الجليل لم يمكن وجوده ، لو لم يسقط البشر ، فيجوز اذن ان نقول : انه عزّ وجلّ سمح بسقوط الجنس البشري قصد ان يكون هذا المصاب سبباً لايجاد سر الفداء .

ثالثها : ان يكون في الحياة البشرية محلّ افضيلة التوبة مع كل ما ولّدته

من الاعمال المدهشة في خدّام الله الذين ارتدّوا الى الحق ، فهنا ايضاً يحقّ لنا ان نقول : ان العالم كان ناقصاً جدًّا ، لو لم تتلألأ في البشر هذه الجوهرة الكريمة التي يبهرنا بهاؤها في حياة القديسين . نعم ان كثيراً منهم باشروا اعمال التوبة مع انهم كانوا اطهاراً منذ صغرهم فاستحقوا هذا الثناء العجيب . فان شدة التكفير اقترنت فيهم ببياض البرارة التامّة . غير انهم واظبوا كذلك على الاصوام وسائر انواع التقشف ، قصدَ ان يميتوا في انفسهم شهوات الطبيعة البشرية الساقطة ، وان يستغفروا الله عن هفواتهم الخفيفة وعن ذنوب الخطأة ، واذن فهذا اوضح صدق ما قلناه ، اي انه لو لم تكن خطيئة في العالم ، لما كان فيه محل لفضيلة التوبة .

رابعها : ان الاشرار يجرّبون الصدّيقين بما يمرّسهم على فضائل عجيبة ، لم يكن ظهورها في العالم ممكناً ، لو كان البشر كلهم ابراراً . واخص هذه الفضائل اثنتان : الصبر على اساءات الاثمة ، والشفقة على شقائهم . فاننا نرى هاتين الدرّتين متلألئتين في كل صفحات التاريخ الكنسي . ولاسيما اولاهما فقد لمعت خصوصاً في الشهداء الذين كابدوا من انواع العذاب ما يفوق كل وصف ، في سبيل عبادة الله والتمسك بشريعته المقدسة . فمن ينكر ان ما ظهرَ فيهم من البسالة والجلادة لم يكن من اعظم الاعاجيب التي تجلّت فيها حكمة الله وقدرته الغير المتناهيتين . اما اشفاق الصديقين على ضلال الخطأة ، فنرى ثماره الثمينة . اولاً في ما يُرفع يوميا الى عرش الرحمة الالهية من الصلوات الحارّة لاجل اهتداء الضالين . ثانياً في ما تُشفع به تلك الابتهالات ، من التقشفات والتضحيات المتنوعة لاستعطاف الله على ابنائه الذين ابتعدوا عنه . ثالثاً في ما يُقدم عليه اصحاب الغيرة الرسولية من المساعي الشاقة ليردّوا الخطأة الى التوبة ، وليوصلوا نور الانجيل الى المتحكمين في ظلمة الاديان الكاذبة . وهذه الغيرة ، مع ما ولّدته من الاعمال العظيمة والتضحيات المذهلة ، هي من ابهى المحامد التي تفتخر بها كنيسة المسيح .

خامسها : سموّ القداسة الذي يرتقي اليه خدّام الله بممارسة ما مرّ تبيانه من الفضائل ، فان وجودهم بين الاشرار كوجود الذهب في النار ، كلما اشتد

اضطرامها عليه ، وطال بقاؤه فيها ، زاد بهاء . ومما يزيدنا عجباً حكمة الله الذي يستخرج اعظم الخيرات من اشنع الاحوال ، ويستخدم مساوئ الارذال لانتصار مختاريه . فايّ شيء افظع في هذه الدنيا من خبث الذين يضطهدون اهل الورع ، ويحاولون ملاشاة ملكوت الله ، ولكن اي مجدٍ يساوي نصيب الشهداء في السماء من الكرامة والسعادة مكافأةً ابديةً على ما قاسوه من المشقات بمدةٍ وجيزة ؟ وكذلك الذين يتفانون الآن ، في انذار الأثمة وهداية التائهين . فما افخم اكليل البرّ الذي يحق لهم ترجيه من الديّان العادل ! وما اخفّ ما يكابدونه اليوم من المصاعب ، وما يقتحمونه من المخاطر ، بالنسبة الى ما دعاه الرسول تقل العظمة الابديّة الفائق كل حد وقياس !

واذن فهذا هو ايضاح انواع الخير التي يرتب الله تعالى ما يسمح بحدوثه من الشرّ الادبي لتحصيلها ، حتى يتضح لكل قارئ لبيب ان سماح الله بالشرور لا يتضمن شيئاً ينافي حكمته وصلاحه ، بل بالعكس يبدو فيه سموّ تلك الحكمة التي تحوّل اسوأ افعال المنافقين لاسباب ، الى احسن الثمرات واسعدها ، ولا ترضى بخراب بعض اجزاء الكون إلا لايجاد ما يزيد العالم كمالاً وجمالاً . هذا ما يلذّ لاهل التقوى التأمل به معترفين ومنادين بانه ، عزّ وجلّ ، عجيب ليس في اعمال قوّته فقط ، بل في ترتيب عنايته نحو الشوائب التي لم تصدر منه ؛ وليس في محامد اوليائه فقط ، بل كذلك في مآثم الخلائق الناطقة التي اساءت استعمال حرّيتها ، وحاولت ان تخرج عن النظام العمومي بالتمرّد على خالقها ، غير انه تعالى يردّها الى النظام عينه بطرقٍ تفوق ما تستطيع ادراكه . هذا وان كان وجود الشرّ الادبي في دنيانا سرّاً يقف تجاهه عقلنا منذهلاً ، فمع ذلك ليس سعينا في شرح هذا السرّ مبذولاً باطلاً ، فانه يزيدنا استظلاماً لتلك الحكمة الالهية ، التي تجلى لنا الآن شيء يسير من كنوزها وسبلها ، ومحبةً لله الذي يظهر صلاحه كما في الخيرات التي هو مصدرها وموزعها كذلك في الشرور التي لا يسمح بوقوعها ، الّا ليحصل منها خير عميم ، وخصوصاً لتكون تلك الشرور مفيدةً اجر الثواب الابدي ، لكل من يجاهد ضدّ الشرّ ، ويسعى الى انتصار الخير .